قال: اكرر عليكم مشورتي ستلقون خطرًا
قالت: دع عنك الخوف يا شيخ السلام
قال: قد انذرتكم وقد أعذر من أنذر

(التتمة للآتي)

اطيب مثال

في ترجمة المطران جرمانوس الشمالي

نبذة للكاتب الفاضل الخوري بشاره الشمالي

الحياة دعوات ومواهب لله الباري عزَّ وجلَّ وما حيـاة الطيّب الذكر المطران جرمانوس الشمالي الشهير بالمبرّات الّا حياة رسول الانذار والتبشير في ديارنا الشرقيّة في النصف الاخير من القرن السابق اصطفاهُ الله ليكون قدوةً للاحبار ومثالًا لاهل الفضل وذوي الغيرة. فايفاء بالوعد واجابةً الى رغبـة مدير هذه المجلّة نزفُّ الى قرّاء المشرق الكرام لباب حياة هذا الحبر الجليل التي اودعناها في كتاب مطوّل وسمناهُ بالدُرر الغوالي من حياة المطران جرمانوس الشمالي ونشرناهُ بالطبع مزيّنًا برسوم عديدة. ونقسم نبذتنا هذه الى ثلاثة ابواب نصف في اوّلها الرجل واهم اطوار حياتهِ التي تقلّب فيها. وفي ثانيها المرسل واعمالهُ وطريقتهُ المُثلى في الوعظ والخطابة. وفي ثالثهـا نعتبر المؤلف والشاعر والمراسل وكلُّ ذلك على وجه الاجمال فرارًا من الاسهاب الممل. ومن استزاد فعليهِ بالكتاب المتقدّم ذكرهُ

١ الرجل واطوار حياتهِ

سُهيلة قريةٌ خامنة تتوسّد منحنى جبلٍ من مقاطعة كسروان يبعد عن البحر نحو ميلين على كتف قرية عينطورا ذات المدرسة الشهيرة تحدق بهـا الغابات والاحراج الكثيفة كأنها

سلطانةٌ حُلَلُ الحرير محيطةٌ بفنائها من اخضرٍ او اصفرِ
والبحر يرقص عند اسفل عرشها متغنيًا بدويّهِ عن مزهرِ

فهذه هي القرية التي احتلّتها أسرة الشمالي منذ نحو مائتي سنة فنمت عددًا وفضلًا حتى زانها الله بفرعٍ جديد اولاها فخرًا على فخرٍ ألا وهو صاحب الترجمة فرنسيس ابن

الخوري ميخائيل بن منصور بن يوسف الشمالي الذي اشتهر في آخر حياتهِ باسم جرمانوس .. ولد فرنسيس في اوائل شباط من سنة ١٨٢٨ من والدين بارّين يعدّان التقى من كنوزهما وكان المولود ثالث اخوةٍ اربعة لم يبقَ منهم في قيد الحياة الّا اصغرهم

فنشأ الصبيّ في حجر والديهِ تقيًّا ريّض الطباع محمود الاخلاق محبًّا للعبادة . ومما اتّصف بهِ في سني عمرهِ الاولى تعبّدهُ لمريم العذراء تلقّن ذلك من امهِ وهو في المهد فنما ونمت في فؤادهِ محبتهُ نحوها وتأصّلت عروقها في صدرهِ وما زالت تزداد نموًّا مع الأيام الى آخر نسمة من حياتهِ وقد كافأتهُ البتول الطاهرة عن عبادتهِ هذه بان استدعتهُ الى دار البقاء يوم عيد الحبل بها البريء من دنس الخطيئة الاصليَّة

وكان فرنسيس متوقد الفهم سريع البديهة جيّد الحافظة فارسلهُ ابواهُ مذ ترعرع الى مدرسة مجانيَّـة كان انشأها في عين طورا في القرن السابق الاب بطرس مبارك اليسوعيّ المارونيّ ولم يزل يتردّد اليها حتى اتقن دروسها وهي عبارة عن مبادئ القراءة العربيَّة والسريانيَّة واصول الخطّ مع نظرٍ في الكتب الطقسيَّة لمساعدة الكهنة في الرتب الدينيَّة . وبلغ ذلك قبل ان يدرك العاشرة من عمرهِ

وبعد ان انجز فرنسيس دروسهُ البدائيَّة طفق يعضد اخوتهُ في قضاء حاجات البيت ومناظرة الاملاك وهو مع ذلك يراجع في اوقات الفراغ ما تعلّمهُ ويتمنّى لو يُتاح لهُ ان يدخل احدى المدارس كي يستقي من ينبوع علومها الزلال

وفي اثناء ذلك سمع الشاب صوت الله يدعوهُ الى خدمتهِ وزادهُ رغبةً في هذا الامر انهُ قضى بضعة اشهر في مدرسة مار سركيس ريفون الاكليريكيَّة حيث تقوّى في درس السريانيَّة فمثل فيهِ منظر تلامذتها ودَّ لو تيسّر لهُ ان يكون مثاهم . فكان يطلب الى الله والى والدتهِ البتول ان يقرّبا اليهِ مرغوبهُ ويبلغاهُ اقصى غايتهِ

فاستجاب الله صلاتهُ وفاز بمتمناهُ بعد زمن قليل فانهُ بلغ السيّد اسطفان الخازن مطران دمشق ما كان عليهِ فرنسيس الشمالي من ذكاء الفهم وحسن التقوى وانهُ تائق الى الدروس ليخدم الله في الدعوة الكهنوتيَّة فسُرَّ بذلك وارسل الشاب الى مدرسة مار عبدا هرهريّا فدخلها وقلبهُ يستطير فرحًا كمن اصاب كنزًا دفينًا يؤمّنهُ من كوارث الدهر او معينًا صافيًا يبرّد فيهِ غليلهُ . وكأنّي بهِ قد ردّد في فكرهِ ما قالهُ بعد ذلك في وصف العلم (نظم اللآلئ ص ٥٩) :

العلم للعقل مثل النور للبصر من أحرز العلم نال الفوز بالوطر
من حازهُ حاز كنزًا ليس تسلبهُ ايدي اللصوص ولا ذو المكر والغرر

لم يباشر فرنسيس العلوم التي طالما رغب اليها حتى عكف على تحصيلها واندفع الى إحرازها بما لا مزيد عليهِ من النشاط والغيرة. وكان يجد في موقع مدرسة مار عبدا ما يحبّب الدرس الى قلبهِ فانَّ هذه الدار في عزلة عن ضوضاء العالم مبنيَّة في وادٍ نضير تزينهُ احراج الصنوبر والحدائق المثمرة. ويروي هذه الفياض جدول ماء زلال يتحدَّر في وسطها مترقرقًا

ففي هذا المكان النزِه صرف فرنسيس الشمالي سبع سنين عدَّها من اسعد ايام حياتهِ فتفرَّغ الى اقتناء كلّ العلوم الكهنوتيَّة من فصاحة وفلسفة ولاهوت مع درس العربيَّة والسريانيَّة. على انَّهُ كان منشغفًا بدرس الكتاب المقدَّس يمعن في معانيهِ النظر ويتعلَّم منهُ قطعًا عن ظهر قلبهِ ويطالع شرحهُ وقد دارم على درس الاسفار المقدَّسة مدَّة حياتهِ كلّها. ومن آثارهِ الباقية في ذلك انهُ نسخ كل تفسير العهد الجديد لكرنيليوس الحجري بيدهِ وهو عبارة عن ١٥١٠ صفحات في ثلاثة مجلَّدات ضخمة

وبلغ حبُّ فرنسيس للدرس الى انهُ كان يحرص على وقتهِ حرص البخيل على مالهِ فلم يُضع منهُ شيئًا. وكان في مدَّة تنزُّه الدارسين يعتزل عنهم لمطالعة كتاب او لمراجعة درس وما كان ليصرفهُ عن ذلك صارفٌ حتى في ايام الشتاء والبرد القارس فلا عجب بعد هذا انهُ اصاب قصبات السبق في مضمار العلوم وفاق على رفقتهِ ونجح نجاحًا بيّنًا في الامتحانات التي قدَّمها لدى الاساتذة الفاحصين فأدّوا لهُ شهادة تؤذن باهليَّتهِ وفضلهِ

وكان فرنسيس مع انكبابهِ على العلوم لم يغفل امر نفسهِ فانهُ كان يهتمّ بان يزيّن قلبهُ بالفضائل التي تمكّن ارباب الكهنوت من مباشرة اعمالهم الشريفة في سبيل الله وخلاص القريب. وكان بقدر ما يقترب من يوم ارتقائهِ الى درجة الكهنوت السامية يزيد قلبهُ برًّا وقداسة الى ان اسفر صباح ذلك اليوم السعيد الذي اتَّخذ فيهِ الربَّ وحدهُ نصيبًا وميراثًا وكان ذلك في ٥ آب سنة ١٨٥٥ على يد سيادة المطران اسطفان الخازن وجرى الاحتفال في كنيسة سهيلة الرعائيَّة. وثاني يوم تكهُّنهِ وهو يوم عيد التجلي اقام للمرَّة الاولى قدَّاسًا حافلًا حضرهُ جمهور الاقارب واهل القرية فتأثروا لما وجدوهُ في الكاهن الجديد من التقوى الملائكيَّة وكان ذلك اليوم عيدًا بهيجًا قضاهُ الخوري

فرنسيس في مسقط رأسه بين التهاني والمسرات. وفي مساء النهار أوقدت المشاعل وأطلقت البنادق وعلت اصوات الفرح ودام ذلك هجمةً من الليل

وما كاد الخوري فرنسيس يرشف كأس الهناء حتى دعاهُ الله الى الشغل وتضحية نفسه في سبيل القريب فاتاهُ امرٌ من غبطة البطريرك يوسف الحازن ليعود الى مدرسة مار عبدا ويتولى رعاية تلامذتها وتهذيبهم في الآداب والعلوم الكهنوتية فاجاب الى دعوة غبطته وباشر مهمَّتهُ الجديدة بما عُرف بهِ من النشاط والهمَّة. والذين تتلمذوا لهُ يثنون حتى اليوم على صفاتهِ الطيبة كغزارة علمهِ وإحكامهِ في الشرح ولين جانبهِ في المعاملات وحرصهِ على تثقيف الطلبة في العلم والفضيلة دون مراعاة الاشخاص. وقد خرج من تلامذتهِ سادة افاضل وكهنة اجلاَّء أدَّوا ولا يزالون الخدم الجليلة لطائفتهم

وكان الخوري فرنسيس يستريح من تعب التدريس بنسخ الكتب الثمينة. وقد بلغ ما خطَّتهُ يدهُ الطاهرة في تلك المدَّة نيفاً وعشرين مجلَّداً في العلوم الدينيَّة والدنيويَّة في اللغتين العربيَّة والسريانيَّة مما تستغرق مطالعتهُ السنين الطوال. وكان مع ذلك لا ينقطع عن اتمام كلّ اعمال الكهنة الغيورين من رياضات ومواعظ واستماع الاعترافات وما اشبه ذلك

الَّا انَّ قلب هذا العبد الامين كان يتوق الى اكثر من ذلك فكانت رغبتهُ الى ان يتعاطى كلّ اعمال الرسالة والتبشير ويشتغل في حراثة كرم الربّ دون عائق. فاتاهُ الله قصارى بغيتهِ بعد زمن قليل. فانهُ لمَّا كانت سنة ١٨٦٥ تيسَّر للطيب الذكر والمزور الساعي المطران يوحنا الحبيب ان ينظِّم جمعيَّة المرسلين اللبنانيين في دير الكريم فكان الاب فرنسيس الشمالي من اوَّل الذين انتظموا في سلك هذه الجمعيَّة وتسَّموا كلّ واجباتها مع نسيبيهِ الخوريين فرنسيس واسطفان الشماليين. وقد امتاز صاحب الترجمة ببراعتهِ في الوعظ وطرائقهِ المبتكرة في اقامة الرسالات حتى شاع اسمهُ في جميع انحاء لبنان بل في سوريَّة كلّها. الَّا انَّ قداسة سيرتهِ وشظف عيشهِ وتقشفاتهِ كانت تفعل في النفوس اكثر من بلاغة خطبهِ. وذلك ما حمل رؤساء الطائفة الى ان يعهدوا اليهِ مراراً بشؤون الملَّة فقام باعبائها احسن قيام

ولمَّا انس منهُ غبطة البطريرك المثلَّث الرحمات يوحنَّا الحاج وسائر السادة الاساقفة هذه السجايا الفريدة وحسن التدبير للامور اجمعوا على انَّ الخوري فرنسيس افضل راعٍ

يقام على ابرشيَّة حلب المترملة منذ سنة ١٨٨٨ . ومن ثمَّ بينما كان المرسل الغيور يصرف مجهودهُ في عمل الرياضات في سواحل بيروت اذ بلغتهُ رسالة من السيِّد البطريرك يأمرهُ فيها بالمثول امامهُ دون تأخير فقام لساعتهِ وذهب توًّا الى بكركي المقرّ البطريركي مساء عيد الميلاد وهو لا يعلم بما هيَّأهُ الله لهُ . فلما وقف على نيَّة رئيسهِ وعرف انهُ لا مناص لهُ من طاعة اوامرهِ حنى الرأس لنير الاسقفيَّة رغمًا عن نفوره طالبًا من الله أن يساعدهُ على القيام باعبائها الشاقَّة

وتمَّت حفلة التكريس في ثاني عيد الميلاد بأُبَّهة عظمى فاتَّخذ منذ ذاك اليوم اسم جرمانوس لما لهذا الاسم في قلوب الحلبيين من الوقع الحسن وقد زيَّنهُ قبلهُ اسقفان جليلان احدهما المطران جرمانوس فرحات الطيِّب الأثر

وما بلغ الحلبيين خبر انتخابهِ راعيًا عليهم حتى ترطَّب لسانهم شكرًا لغبطة السيد البطريرك وائتلفت القلوب وبطلت الاحزاب وباتت الرعيَّة تنتظر بفروغ الصبر ورود حبرها الذي عشقتهُ القلوب قبل ان تنظر اليهِ العيون

وكان يوم دخولهِ الشهباء يومًا مشهودًا بل موسمًا منعودًا اهتزَّت لهُ المدينة كلُّها وقد قدَّرهُ الحلبيُّون منذ رأوهُ حقَّ قدرهِ واقتنص محبَّتهم من اوَّل خطبةٍ القاها في ظهرانيهم يوم وصولهِ فعرفوا بهِ راعيًا غيورًا وابًا محبًّا اتاهم ليتفانى في خير نفوسهم

ولم تكذب فيهِ آمال رعيَّتهِ بل الاولى أن يُقال انهُ بلغ حيث لم تبلغ الاماني والهمم مع قصر مدَّة رعايتهِ التي لم تتجاوز ثلاث سنوات لكنهُ قد صدق فيهِ قول الحكيم : انهُ استوفى بزمن قليل سنين كثيرة

فانهُ ما كاد يستقرُّ على كرسيِّهِ حتى وجَّه همَّتهُ الى توفير اسباب نجاحهِ وابتدأ بامور الدين ولها السبق والتقدُّم فباشر القاء الارشادات والمواعظ على شعبهِ في الآحاد والاعياد وفي آونة الرياضات فتقاطر الناس الى استماعهِ وكان يأتيهِ السامعون من جميع الملل والنحل فيشهدون لهُ بطول الباع في فنِّ الخطابة وقد ارتدَّ كثيرون من الخطأة على يدهِ الى جادَّة الفضيلة

ومن اعمالهِ المبرورة انهُ انشأ الاعمال الخيريَّة ونشَّط الاجتماعات التقويَّة والاخويَّات واهتمَّ بتربية الاحداث وقد بنى لهم مدرسةً ليتثقَّفوا فيها بالدين والآداب وجدَّد المطبعة المارونيَّة لنشر الكتب الدينيَّة والادبيَّة

وفي مدة استقيته اليسيرة اصلح عدة امور في كنيستهِ الكاتدرائية ففرش الخورس بالبلاط واقام منبرًا للوعظ وابتنى مذبحًا للقديس يوسف. وكذلك اصلح الكنيسة القديمة وجعلها محلًا لدارهِ الاسقفية وفيها كان يقدس ايام الشغل. ومع ما تكلّف من النفقات في هذه الاصلاحات امكنهُ ان يفي نحو اربعين الف غرش من الديون التي على الكرسي. وشكّل لجنتين من العوام والاكليروس للنظر في شؤون الوقف

ومما يُذكر لهُ فيشكر اهتمامهُ في اكليروسهِ ومحبتهُ لهم. وكان يبذل الجهد في ان يعيشوا العيشة الاهلة برتبتهم السامية ويزيدوا كلَّ يوم فضلًا وصلاحًا. وكان الاسقف البار يتقدمهم في طريق القداسة فينعش فيهم روح الغيرة والبرّ بمثلهِ اكثرمنهُ باقوالهِ

فكلُّ هذه الاعمال الخطيرة مع ما كان يفرضهُ على نفسهِ من الصوم والسهر الطويل وحصر الفكر في ادارة امور ابرشيتهِ المتعددة فضلًا عمّا كابدهُ من برد حلب القارس وحرّها اللافح قد اثرت بصحّتهِ لكنهُ لم يُبالِ ودام على اشغالهِ الى صوم سنة ١٨٩٥ فباشر الرياضات المتوالية وكان يعظ ثلاث مرات في النهار وهو مع ذلك يصوم الى الظهر ولا يأكل غير الزيت فما مرَّ عليهِ عشرة ايام حتى أُصيب بلقوة بفكّهِ الايسر مع شلل في القلب فاضطُرَّ الى ملازمة الفراش وحكم الاطباء بقضاء الضربة

لكنهُ بعد مدة رأى الأساة بعض التحسُّن في صحّتهِ فاشاروا اليهِ بالاوبة الى لبنان لعلّهُ يجد في هواء الوطن دواء لدائهِ فعمل بعد استئذان غبطة البطريرك وزايل ابرشيتهُ مخلفًا وراءهُ الاسف والكآبة

فعاد الى لبنانهِ العزيز وتنقّل مدة خمسة اشهر في صرودهِ الطيبة حتى تحسَّنت حالهُ الّا انَّ ساعة جزائهِ كانت دقّت فانتكس في ضحى عيد السيدة البرية من دنس الخطيئة الاصلية وهو نازل الى بيروت مع سيادة المطران يوسف نجم النائب البطريركي فما بلغ قصبة جونية حتى احسَّ بدوار قوي عليهِ بعد ساعة فذهب بحياتهِ الثمينة وقد توفي بكل هدوّ بعد ان تزوَّد بالاسرار المقدسة وطلب الغفران الكامل وكان آخر ما وجّه اليهِ خاطرهُ اولادهُ الروحيين فاسام روحهُ وهو يدعو لهم ويباركهم

ولا نصف ما اصاب طائفتهُ ومعارفهُ وخصوصًا ابناء رعيتهِ من الحزن على فقدهِ فانَّ القلم يقصر عن وصف مثل هذه الرزيّة. امَّا جثّتهُ الكريمة فنُقلت الى بكركي حيث صلّى عليها رؤوس الملّة واعيان الطائفة وابّن الفقيد خطباء مصقعون ثم أُودع

الرمس في سُهيلة مستقط رأسهِ بكل تجلَّة واكرام. وقد نُقل بعد ذلك بخمس سنوات الى قبر أُعدَّ لهُ في الجانب الايمن من مذبح الكنيسة الرعويَّة وهو يرقد اليوم هناك على رجاء القيامة وعلى ضريحهِ تُتلى هذه الابيات من نظم الخوري اسطفان الشمالي وقد ضمَّنهُ تاريخاً نقلهُ عن نظم اللآلي :

تنحّى جرمانس الراجي ثواباً قضى رجلُ الخطابة والكمالِ
قضى حبرٌ لهُ في كل قطرٍ محامد خطَّها كبرُ الفعالِ
ترثيهِ غادر الشهباء تبكي لنزل رمس اخوانٍ وآلِ
وارّخ رمسهُ في ذيل رسمٍ كما قد قال في نظم اللآلي
ومن مجيي يميني ارّختهُ فيبقى الرمس ذكراً للشمالي

هذه لمةٌ من ترجمة مثال الاحبار السيّد جرمانوس الشمالي توقفنا على بعض اعمالهِ الخطيرة الّا انَّ هذه الاعمال الظاهرة كانت كلا شيء بالنسبة الى ما اتَّصف بهِ باطنهُ من الفضائل كتقواهُ وروح عبادتهِ في مناجاة الله واتكالهِ على الربّ في الضيقات والبلايا والصبر على الملمّات والسذاجة والنزاهة في المعاملات وسجايا أُخرى كثيرة اتَّصف بها رحمهُ الله يمنعنا ضيق المقام عن تعدادها .

٢ المرسل

المطران جرمانوس ممَّن برَّزوا في ديارنا الشرقيَّة في الكرازة والتبشير فنال بذلك ذكرًا بعيدًا تجاوز لبنان وبلغ حدود الشام وفلسطين والقطر المصري حتى ضُرب بوعظهِ المثل . لكنهُ لم ينل ذلك عفوًا دون عناء بل اتَّصل اليهِ بالاستعداد الطويل والممارسة المتواصلة

واوَّل ما فكَّر فيهِ ان يطبع في قلبهِ الفضائل الرسوليَّة التي لولاها لكان كلام الواعظ « نحاسًا يطنُّ او صنجًا يرنُّ » وكان في صدرهِ غيرةٌ ملتهبة لخير النفوس التي فداها الربّ بدمهِ الثمين . وكان ابتدأ ان يشتغل بامر خلاصها حتى قبل كهنوتهِ وهو شمَّاس فكان يجول في القرى المجاورة لمدرسة مار عبدا ويعلّم الاحداث التعليم المسيحيّ . وكان يوجّه دروسهُ الى هذه الغاية لكي يتَّخذ العلوم وسيلة لخلاص القريب . وذلك ما حملهُ على اتقان درس الاسفار المقدَّسة لعلمهِ أنَّها موردٌ للواعظين يجدون فيها مادَّة واسعة وكنزًا لا ينفد لارشاداتهم وتعاليمهم فضلًا عمَّا في كلام الله من القوَّة السماويَّة المؤثرة في القلوب . وقد واصل هذا الدرس مدَّة كل حياتهِ حتى صحَّ فيهِ قولهُ عن غيرهِ :

السيد الجليل

جرمانوس الشمالي مطران حلب على الموارنة

١٨٢٧—١٨٩٠

هذيذهُ في كلام الله متَّصلٌ يمتار منهُ غذاء النفس كاللبنِ

وممَّا ساعدهُ ايضًا على ما نالهُ من الثمار الروحيَّة روح النزاهة والتجرُّد الذي عُرف بهِ في سياحاتهِ الرسوليَّة فانَّ سامعيهِ لدى علمهم بانَّ هذا الواعظ لا يطلب غير صالحهم كانوا يثقون بهِ ويصغون الى كلامهِ وينقادون الى تعاليمهِ. وكان يحيك فيهم لطفهُ ووداعتهُ فانهُ اجتذب بلين طباعهِ ودماثة اخلاقهِ كثيرين من الخطأة الذين كانوا يقصدونهُ كما قصد الابن الشاطر اباهُ مقرًّا بذنوبهِ تائبًا عن آثامهِ

وقد كان الله جمَّل المطران جرمانوس بكل الصفات الطبيعيَّة التي يعتبرها الناس في مبشِّريهم بالخلاص ومرشديهم الى الله من ذلك جبينهُ الوضَّاح ولحيتهُ البيضاء ونظرهُ العميق المملوّ عذوبةً وملامح وجههِ النسكيَّة وطلعتهُ الزهديَّة ووقفتهُ الخشوعيَّة بحيث لم يرهُ احد على متن المنبر الّا تذكَّر بمن قيل فيهِ: «صوتٌ صارخ في البريَّة»

وممَّا خصَّهُ الله بهِ انهُ كان في وعظهِ طلق اللسان رخيم الصوت سريع الخاطر قويّ الحافظة امينها لا يتلعثم بحرف ولا يتردَّد بكلمة ولا يحصر عن تعبير ولا يسرع بعبارة بل كان يتساقط الكلام من فيهِ كانهُ الدرُّ المنظوم في سلك المعاني اللطيفة والتصوُّرات المبتكرة

وكان فضلًا عن ملكة البيان المذكورة آنفًا رقيق القلب سريع التأثر يخرج كلامهُ من قلبهِ دون تصنُّع فيلج قلوب السامعين ويملك عواطفهم ويستنزف دموعهم مع ما أُوتي من قوَّة الحجَّة وجلاء البرهان عقلًا ونقلًا لتضلُّعهِ في الدروس الفلسفيَّة واللاهوتيَّة وهذيذهِ في الاسفار المنزلة. ولو راجعنا ديوانهُ لرأيناهُ وصف نفسهُ حيث قال في غيرهِ وقد احسن:

	الناظمُ الدرَّ والمنى برصّعها	بالنظم والنثر والانذار بالسُّنن
وبقولهِ:	لديهِ صفات موسى في خطابهِ	وغيرة قلب ايليَّا النيِّر
وقولهِ:	ويعدُّ صوتًا في الخطاب لماسهِ	يونانَ في جوف السفينة نائمًا
وقولهِ:	فترى القلوب تذوب عند خطابهِ	وتزوب بين تفجُّع وتصدُّع
وقولهِ:	فتسمع عند خطبته شهيقًا	وقرعَ الصدر حيث الطرفُ هامٍ

ولو اتَّسع بنا المجال لتبعناهُ في البلاد التي طافها كلبنان وانحاء الشام وحلب والجليل وفلسطين ومصر اذن لوجدناهُ عاملًا نشيطًا في كرم الربّ يحصد حيثما سار حصادًا وافرًا والشعوب تزدحم حول منبرهِ دون تمييز بين غنيّ او فقير وجيه او حقير دنيس

او مرؤوس وربّما كان يتكلّم ساعةً او ساعتين والناس في استماعهِ كأنّ على رؤوسهم الطير وكان كلامهُ يلذّ البلغاء والعامّة لمزجهِ بين الطلاوة والسذاجة وبين المعاني الرفيعة والامثال الدارجة والتشابيه القريبة المنال فتمّ بشخصهِ ما نظمهُ في مدح المطران يوسف جعجع :

ما قام يوماً بالمنابر واعظاً الّا واعطى كلّ نفس ما تعي
ان شئتَ تشبيهاً لهُ في وعظهِ قُلْ مثل موسى يوم وضع البرقعِ
حاكاهُ في نفس البهاء نظير ما ضاهاهُ في هذي الصفات الاربعِ
وهي الوداعةُ والبشاشة والتقى والغيرةُ الكبرى على المتفجعِ

ولا عجب بعد هذا اذا رأيناهُ قضى اجلهُ شهيد الانذار والوعظ اذ لم يُصبهُ الداء الذي ذهب بحياتهِ الّا لانهُ حمّل نفسهُ فوق طاقتها في المواعظ والارشادات ليس فقط في كنيسة طائفتهِ بل في كنائس الطوائف الكاثوليكيّة كلّها اثابهُ الله واجزل جزاءهُ في فسيح جنانهِ

٣ المؤلف

صرف الحبر جرمانوس الشمالي حياتهُ في التدريس والرسالات والقاء المواعظ فلا غرو ان قلّت مصنّفاتهُ وهو لم يتفرّغ التأليف. ومع هذا فقد ترك من بعدهِ كتباً مفيدة غذت النفوس ولا تزال بافاويق البرّ والصلاح. من ذلك انهُ اعتنى بتنقيح كتاب روضة الواعظ الذي عرّبهُ الخوري انطون آصاف وطُبع في المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيين وكذلك اعاد النظر باشارة سيادة المطران يوسف الدبس في بعض الكتب الطقسيّة فاصلح عبارتها كخدمة القدّاس اليوميّة وكتاب الافراميّات اي المدائح التي تُتلى في القدّاس وكتاب الزياحات والرتب

وعُني ايضاً بمعاونة رفيق رسالاتهِ الخوري اسطفان الشمالي بجمع ما كان منثوراً من مواعظهِ في وُرَيقات كادت تلعب بها ايدي الضياع فجاء كتاباً جامعاً سهل العبارة وقد سمّاهُ كتاب لمحة العين زفّهُ الى كهنة الرعايا ليساعدهم على كسر الخبز الروحي للاغنام الناطقة وقد نُشر هذا الكتاب بالطبع في جزئين واليوم قد نفدت نسخهُ لتوارد الكهنة عليهِ. ولا عيب في هذا الكتاب الّا أنّ تحبيهُ نفس كاتبهِ لانّ السيف بضاربهِ كما قيل

وللمطران جرمانوس ديوان شعر ألمعنا اليهِ جمع فيهِ ما نظمهُ من القصائد في كل

ابواب الشعر كالمديح والرثاء والاناشيد والتواريخ وغير ذلك وقد سمّاهُ نظم اللآلي للحبر الشمالي وطبعهُ في حلب سنة وفاته بالطبعة المارونيّة المتجدّدة بعنايتهِ . وحب الاقتصار يمنعنا من ذكر انموذج منها فنحيل القارئ الى مطالعة هذا الديوان ليرى ما فيهِ من المحاسن كجودة النظم وسهولة التعبير وابتكار المعاني . وكان الفقيد شاعرًا مطبوعًا قال الشعر عفوًا دون درس سابق على استاذ وكان قبل دخولهِ مدرسة مار عبدا يقول الشعر العاميّ بديعًا يودعهُ التصوّرات البديعة والمعاني الحسنة ثم طالع كتب العروض بنفسهِ فنظم القصائد الجيّدة . وكان في شعرهِ يطلب المعاني قبل الالفاظ ولذلك يُرى في بعض ابياتهِ شيء من الركاكة . ولا شكَّ انهُ لو تفرَّغ للنظام واعمل النظر في دواوين من تقدّمهُ لكان عُدَّ من شعراء عصرهِ المبرّزين

وكان ينبغي علينا في الختام ان نذكر شيئًا من مراسلاتهِ فانّها مثال المكاتبات الاهليّة الخالية من كل تصنُّع مع ما فيها من سلامة الذوق وجودة التعبير والتجافي عن الكلفة والاسترسال في المعاني اللينة والعواطف الودادية . ودونك رسالة نثبتها هنا لتعريف طريقتهِ في الرسائل كتبها الى ابنتي اخيهِ المتضبّتين الى رهبانيّة القديس يوسف في مدينة ليون :

« انهُ لدى رجوعنا من شغل الرسالة الى الدير لاخذ الراحة قليلًا وتشديد ما يمكن ان يكون ارتخى من عزائم القوى لنتمكن من تجديد العمل بحرارة ونشاط في ابتداء الصوم المقدَّس القادم قد ورد لنا تحريركما فتلقيناهُ بغاية السرور وكان لنا بدء الراحة لما حواه من الإخبار المشير الى راحتكما التامَّة وسروركما بحالكما السعيدة ما بين زهور فردوس ثانٍ مع يسوع آدم الثاني الذي هنّأنا بعيد ميلادهِ السعيد . واستنشقنا ما اقتطفتماهُ واهديتماهُ برسالتكما رائحة زنبق الطهارة ونردين التواضع وورد المحبَّة فلا برحتما مصونتين من كل كدر ومحروستين برعاية من يرعى بين السوسن ولا زلتما تودّعان عيدًا وتستقبلان عيدًا في ساحة الافراح مع مصافّ العذارى عروسات يسوع . الى ان نلتقي جميعًا في ذاك العيد الذي لا تنتهي افراحهُ ولا تصمت الالسنة عن التهنئة بهِ . ثم نقول اهلًا وسهلًا بالسنة الجديدة جعلها الله سنة مباركة تبشّر بالخير والاحسان في كل مكان . وتطلبان الدعاء بدلًا عن « صباحيتكما » في صباح الخير فهذا نقدّمهُ في كل صباح على يد مريم البتول التي تكمل ما ينقصهُ من شرائط القبول فالامل ان يكون لنا ولجميتنا المديشة نظيرهُ منكما ومن كامل جمعيتكما المقدسة المقبول دعاؤها والمشهور خيرها اشتهار الشمس رائعة النهار والضامّة في سلك المحبة لآلئ استُخرجت من بحر هذا العالم فيزدان بأثمانها اكليل اليمة المقدسة . . .

ونقف عند هذا الحدّ طالبين منهُ تعالى ان يطيّب ضريح هذا الحبر المفضال والعبد الامين ويجمعنا وايّاهُ في مصافّ اوليائهِ الصالحين